

كتب السيرة النبوية

تكون كتب السيرة العنصر الثالث في العناصر المكونة لهذا العصر الذى نسميه بعصر التجميع في الرواية العربية . . فبينما نرى كتبنا تذهب الى جمع الأساطير والروايات العربية كجزء من التراث الأسطوري والفنى العربى ودون أن تعنى عناية حقيقية بتطويع القصة أو الأسطورة لمضمون دون آخر ممثلة في كتاب التيجان لوهب بن منبه . . نرى كتبنا تذهب الى جمع الأساطير والروايات قاصدة بهذا الجمع اثبات المضمون الاسلامى ، ومستعينة بالقصة لتثبيت المعانى الجديدة التى جاء الاسلام لينشرها، وهى والحال هذه لا تتعارض على الاطلاق مع القصص القرآنى، بل تكاد تكون امتدادا له وتكملة ، فاذا ما تعرضت لقصص ليس بالقرآن فهى تضع فيه من الدلالات ما يتفق والقرآن ، وهذه الكتب تتمثل في كتاب عبيد بن شرية الجرهمى الذى يحكى مجالسه مع معاوية بن أبى سفيان . . هذان كما ترى اتجاهاً في جمع الحكايات العربية والأساطير المتوارثة ، أما الاتجاه الثالث فهو الذى يتمثل في كتب السيرة ، ولعل قممها هو كتاب السيرة النبوية لابن اسحق الذى رواه ابن هشام . .

ونحن حين نضم كتب السيرة الى الأعمال القصصية انما

تستند الى طبيعة هذه الكتب ومنهجها كما نستند الى تاريخها
وتطورها ..

فالعرب قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن لهم
من مادة للتاريخ الأسطوري والقصص الا ما كان شائعا بينهم
من أخبار ملوكهم واجدادهم الأولين ، وما في حياة هؤلاء من أحداث
اتسمت اغلبها بالسمة الاسطورية وغلفتها الخرافة الى حد كبير ..
ولعل اكثر هذه الأحداث ما عرفوه عن طريق اليمانيين من قصص
تتعلق بملوك اليمن وابطالها . ونستطيع أن نضيف الى هذا كله
أيام العرب وحروبهم وما دار حولها من حكايات .. الا أن هذا
كله مهما حاول القصاصون والمؤرخون أن ينقوه من السمات
الجاهلية فلا شك أنه ظل يحمل في طياته روائح المعتقدات الجاهلية
والتقاليد الجاهلية .. ولذلك لم يكن من العجيب أن يتجه
القصاصون المسلمون بجهدهم الفنى الى المورد الجديد الذى اتاحته
لهم دعوة محمد (ص) . وما روى الصحابة والتابعون من أحاديث
عن ولادته صلى الله عليه وسلم ، وعن حياته وكفاحه ، وما حفلت
به هذه الحياة من حركة وجهاد واصطدام بأهل الشرك . فهذه
المادة الفنية الزاخرة ليست مصدرا ثريا وحسب ، بل هى مصدر
يتفق مع الروح الجديد الذى ملأ أعطاف الأمة العربية بعد الاسلام .
وينتلاعم كل التلاؤم مع رغبات المثلثين الذين شغلوا بالاسلام عما
عداه ، فكان أقرب الى قلوبهم أن تكون الأعمال المقدمة لهم أعمالا
تقوم على صاحب الدعوة وعلى أحداث الدعوة ..

وإذا كان هذا السبب الذى أوردناه يعتبر سببا منطقيا فهناك سبب تاريخى دفع الى هذا الاتجاه القصصى فى سرد سيرة النبى واحداث حياته . . ذلك ان القرن الهجرى الأول مضى جميعه بدون أن تدون الأحاديث النبوية تدوينا له صبغة رسمية ، ولعلمهم نخرجوا ان يفعلوا ذلك فيجعلوا الى جوار كتاب الله كتابا آخر . . فقد روى عن الزهرى أنه قال : اخبرنى عروة بن الزبير ان عمر بن الخطاب أراد ان يكتب السنن ، واستشار فيه أصحاب رسول الله ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهرا يستخير الله فى ذلك .شاكاً فيه ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : « انى كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فاذا اناس من اهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا ألبس كتاب الله بشيء » . .

فأنت ترى تخرج عمر من تدوين الحديث . . والمعروف أن الحديث لم يدون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كما دون القرآن ، بل لقد جاء فى الأحاديث نفسها ما ينهى عن تدوين الحديث ، منها ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليحبه ، وحدثوا عنى فلا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوا مقعده من النار » . .

وهكذا نرى القرن الأول يمضى بأجمعه وليس هناك كتاب يجمع آثار الرسول ويقدمها للناس ، انما كل ما فى الأمر ان الصحابة

يحفظون ويروون . . وكان لهذا الحجر أثره ، فمع حاجة الناس الى ان يعرفوا من أمر حياة رسولهم الشيء الكثير ، ومع هذا الحظر على كتابة الاحاديث وتدوينها نشأ هذا الاتجاه الى التدوين التاريخى الغاية ، القصصى القلب الذى اتجه اليه الكثيرون . . ولعلمهم وجدوا فى تدوين ما يتعلق بالنبى وحياته وغزواته ما يحقق ما فى نفوسهم ونفوس المتلقين لما يكتبون من تعلق بالرسول ، وحب لتخليد آثاره .

ولذلك لم يكن عجبيا أن يكون من أول المتصددين لكتابة السيرة أناس ممن اشتهروا بكتب القصص والاساطير كوهب بن منبه الذى كتب فى المغازى كتابا حفظ حلية الأدباء قطعتين منه ، واحدة تتناول فتح مكة ، والثانية وفاة النبى . . ويذكر الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمة سيرة بن هشام أن فى مدينة هيدلبرج بألمانيا قطعة من هذا الكتاب ، ويقول الدكتور حسين نصار فى كتاب نشأة التدوين التاريخى ان هذه القطعة تتناول تاريخ العقبة الكبرى واجتماع قريش فى دار الندوة والهجرة وغزوة بنى خيثم « مما يدلنا على ان وهبا تناول الفترة المكية والمدنية من حياة الرسول » .

الا أن الظاهرة الأساسية فى تدوين كتب السيرة أن معظم القائمين عليها كانوا من المحدثين كعروة بن الزبير بن العوام الذى جاء ما دونه على هيئة رسائل الى عبد الملك بن مروان جاءنا بعضها عن طريق ابن اسحق والواقدي والطبرى . . ويقول عنها الدكتور نصار انها تمثل أقدم المدونات التى وصلت الينا عن بعض

الحوادث الخاصة في حياة النبي ، ولم يعن عروة بجمع الأخبار عن حياة النبي فحسب ، بل عنى أيضا بحوادث الخلفاء الأولين أيضا فتراه يعالج وقعة القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام ، ويعنى عروة أيضا بتاريخ الزبيريين . ولذلك ترى جميع أخبار الحزب الزبيرى وحروبه وفتنه مروية عنه في كتب التاريخ . . . وكذلك اشتهر بالتأليف في المغازى إبان بن عثمان ، وعاصم بن عمر الذى يقول عنه ابن قتيبة انه صاحب السير والمغازى ، والزهرى الذى يقول عنه الأغانى ان خالد بن عبد الله القسرى امره بكتابة السيرة له ، وموسى بن عقبة ومعمربن راشد ثم شيخ رجال السيرة محمد ابن اسحاق .

وهذه الكتب كلها يذكر عنها المؤرخون أنها عنيت بالشعر ونماذج الخطب والرسائل . ومن بعض النماذج التى نقلتها لنا الكتب المتأخرة عن هذه الكتب نجد أنها تكاد تشبه في تأليفها بوصياغتها كتاب وهب وكتاب عبيد . . . وليس هذا بعجيب فالعرب كما عرفنا من قبل قد عرفوا هذه الطريقة الروائية في نقل تاريخهم ، مزجيين اياه بالوان من الأساطير ، ومغلفين أحداثه بخيالهم الذى يخلق المواقف الروائية بين الأبطال خلقا ، ويجرى على سنتهم الحوار الشعرى حيناً ، والحوار النثرى المصنوع حيناً آخر . . . ووصلة الهمز بين العمليين ، روائى كوهب يتناول حياة الرسول ومغازيه . . . ولسنا نحسب ان وهبا في هذه المغازى يخرج على منهجه الذى استنه في كتابه التيجان ، وانما الأقرب الى العقل والمنطق أن يكون منهجه في كلا العلمين واحدا لا يتغير .

فالسبب الثانى اذن هو ما حاول به الكتاب ان يسدوا من ثغرة يحسونها اذ يمنعون عن رواية الحديث فلجأوا الى تدوين أحداث السيرة معتمدين على ما شاهدوا وحفظوا من أحداث حياة الرسول ، وناهجين النهج الذى تعودوه فى التأليف أعنى النهج القصصى . . وكتاب ابن اسحاق يسير على نهج كتاب وهب ابن منبه من بدء بتاريخ الأنبياء من آدم . . الا ان بن هشام حين قدمه لنا انتهج نهجا خاصا فى عمله بالكتاب ، ويصدر ابن هشام كتاب السيرة بما يكشف عن دستورته ومنهجه يقول :

« وأنا ان شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر اسماعيل ابن ابراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده ، واولادهم لأصحابهم ، الأول فالأول ، من اسماعيل الى رسول الله (ص) وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل على هذه الجهة للاختصار ، الى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك ما يذكره ابن اسحاق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله (ص) فيه ذكر ، ولا نزل فيه القرآن شىء ، وليس سببا لشىء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من اهل العلم بالشعر يعرفها . وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره . . »

وهذا المنهج يحدد مكان قصص السيرة من أنواع القصص فى عصر التجميع هذا ، فهى كما ترى تلتزم التزاما بسيرة الرسول ،

تحكى عن سبقه ماله علاقة ببيلاده وما يعد مقدمه لبعثته . .
فهى كما ترى تروى التاريخ منذ اسماعيل متبعة من له علاقة
بشجرة النسب التى ينتسب اليها الرسول . . فاذا تركت هذا
فانما الى احداث تعد ضرورية لفهم رسالة الرسول كدخول اليهود
الى الجزيرة ، ثم دخول النصرانية . . ثم ما بين الدينين الكتابيين
من صراع ، وما بينهما مجتمعين وبين الوثنية من معارك لانتهى ،
بل قصة الوثنية نفسها وكيف عرف العرب الأصنام فأشركو بعد
ان كانوا موحدين على ملة ابراهيم عليه السلام . . ولا شك ان
كل هذا له قيمته وأهميته فى التمهيد للحديث عن الرسول
وبعثته . . الا ان اعتماد كتب السيرة فى رواية هذا الجزء المهد
للسيرة نفسها انما كان يقوم على نفس المصادر الذى اعتمدت عليها
كتب الروايات والأساطير ككتاب وهب وكتاب عبيد . .

، واذا كان وهب جمع كل شىء دون التقيد الا بالتسلسل
التارىخى ، واذا كان عبيد قد التزم فيما يجمع بمضامين تتمشى مع
الدين الجديد ، فان ابن هشام كما ترى يلتزم التزاما بجمع ما له
علاقة بالرسول فى نسبه ، أو بالرسول فى رسالته . . فاذا ما
تعرض لأحداث تاريخية أو أسطورية لا علاقة لها بنسب الرسول
أو بالحركة الدينية فى الجزيرة مر بها مسرعا . فهو يتناول تاريخ
اليمن بما له علاقة باشارات القرآن العديدة الى هذا التاريخ ،
كعاد واهل الأخدود وأصحاب الفيل .

وكتب السيرة هذه نلمح فيها جميعا ظاهرة هامة وهى

الاهتمام بالمغازى . . بل ان الاسم الذى عرف لهذه الكتب فى اول
 الأمر هو اسم المغازى . فوهب وأبان بن عثمان وعروة بن الزبير
 وعاصم بن عمر يشتهرون جميعا بأنهم من كتاب المغازى . . ومعنى
 هذا أنهم يتتبعون حياة الرسول خلال المعارك التى خاضها .
 والواقع ان كل كتب السيرة حتى التى تناولت من حياة الرسول
 اكثر من قطاع وقفت كلها عند المغازى وقفة طويلة . . وهذا
 الاتجاه يكشف عن ما تحاوله هذه الكتب من وصل لتاريخ العرب
 القديم بتاريخهم الحديث . . وتاريخ العرب القديم سلسلة من
 المعارك والغزوات ، فكان من الطبيعى أن يلتفت العرب فى تاريخهم
 الحديث الى الغزوات والمعارك . . ولا عجب ان تبلورت فى نفوسهم
 شخصية الرسول (ص) لتحل تدريجيا مكان أبطالهم الأسطوريين
 الذين ينسبون اليهم القوة والقدرة وحرب القوى الخفية . .
 فالعرب كما لعلك رأيت فى حكايات وهب يعتقدون أنهم يحملون الى
 العالم رسالة ايمان ، ويعطون أبطالهم هذه السمة ، سمة المدافعين
 عن حق معين . . وهذا الحق يبدو فى بعض الأساطير مبهما
 غامضا ، وهو فى البعض الآخر يأخذ جانب الكتب السماوية . .
 فهو مرة مع اليهودية وهو مرة مع المسيحية . . الا أنه لا يحارب
 من أجل الشر أبدا . بل ان حروبهم دائما منذ مطلع ما يذكرون من
 أساطير تقف الى جانب رسالة ما بصورة دائمة . . وقد أتاحت
 لهم شخصية الرسول كل السمات التى يبحثون عنها فى أبطالهم . .
 فقد كانت معاركة كلها معارك انتصار لمبدأ ، ودفاع عن ايمان ،

وحربا ضد شرك وكفر .. كانت معاركه اذن صورة واقعية
لأحلام أسطورية كثيرة راودت ذهن العربي وملأت خياله من قبل ..

كان العربي يتلمس أبطاله في اعماق التاريخ في حياة التبابعة
والجرهميين ، وكان يلبس أبطاله ثوبا معنويا يرتاح هو اليه ،
ويطمئن الى أنه يمثل ما فيه من فضائل ، ويحقق نزغته الى البطولة
المتكاملة .. وفي النبي تجسدت هذه الفضائل وتحققت النزعة
البطولية المتكاملة . ولذا فالنبي (ص) يحتل في هذه القصة
مكان البطل ، ويمثل فيها جماع ما كان العرب يحلمون به من مثال
لبطلهم الذى يحمل السيف دفاعا عن حق معين تسنده قوة جبارة
تعينه على هزيمة المشركين . وتفتح امامه الطريق وتزيل من امامه
العقبات ، بينما هو وقلة من رجاله يجالدون اهل الشرك الكثيرى
العدد والعدة حتى ينتصر وينتصر معه ايمانه الجديد ورسالته
الجديدة .. ومحمد بعد منهم ما فى ذلك شك يرفعون نسبه الى
اسماعيل محققين فى كل أب من أبائهم رابطين لسلسلة النسب النبوى
بمجموعة من الأعمال التى تمهد للبطولة الكاملة عند محمد ..
ويقول ابن هشام فى الجزء الأول من السيرة : « فرسول الله صلى
الله عليه وسلم اشرف ولد آدم حسبا ، وأفضلهم نسبا من قبل
أبيه وأمه صلى الله عليه وسلم » ومن الأحاديث التى نسبت اليه
(ص) أنه قال : « ما ولدتنى بغير قط منذ كنت فى صلب آدم ،
فلم تزل تنازعنى الأمم كابرا عن كابر حتى خرجت فى أفضل حين
فى العرب : هاشم وزهرة » .

والواقع ان السمة الأولى في أبطال العرب اتصال نسبهم
اتصالا واضحا لا خلل فيه بآدم ، فالشرط الأساسى للبطل العربى
ان يكون شريف النسب ، صحيحه ومتصله .. وفى كتاب وهب
وكذا فى كتاب عبید لن تجد بطلا تاريخيا واحدا لا يذكر لك المؤلف
نسبه الذى يصله بآدم .. وكأنهم يجدون فى شرف نسبة بطلهم
شرفا لهم أجمعين ..

واحب هنا أن الفت الى ظاهرة هامة متميزة ، ذلك أن
أبطال العرب قبل الاسلام كانوا جميعا من عرب الجنوب اى من
اليمن .. بينما محمد يمثل البطل الحقيقى الأول من عرب
الشمال .. ولذا فقد كان احتفال الشماليين بظهوره احتفالا خطيرا
وهاما .. فقد ظلوا يتناقلون بطولات اليمنيين باستمرار حيث
كانت الحضارة والمدنية ، وعزاؤهم إنهم بعد عرب .. اما وقد
ظهر فيهم بطل شمالى نسبا وحسبا فلا عجب أن استعاضوا به
عن غيره من أبطال اساطيرهم القديمة .. وأنت تعرف هذه المحاولة
العصيبة المظهر التى وردت عند عبید بن شربة الذى اراد بها
وهو اليمنى أن يضيف هذا البطل الشمالى الى قومه فيقول :
« حتى كان اسماعيل ونقله أبوه ابراهيم صلى الله عليه وسلم
من بلاده ، فأنزله بمكة .. فكنا نحن جرهم أهل البلد والحرام ،
فنشأ اسماعيل بيننا وتكلم بكلام العربية وتزوج منا .. فجميع
ولد اسماعيل من بنت مضاض بن عمر الجرهمى . واسماعيل
وأبوه منا ، وأنتم يا قريش منا ، والعرب بعضها من بعض .. »

ألم تعلموا انكم من ولد اسماعيل بن ابراهيم صلى الله عليه وسلم ،
وابراهيم نحن ولدناه وابوه آزر واسمه تارخ بن ناحور بن أرغو
ابن شارخ بن فالغ بن عابر ، وهو هود ، فهو أبونا وأبوكم ، فنحن
ولدناكم وانتم منا ونحن منكم قليل في كثير . .

هذه المحاولة من جانب عبيد تبين أهمية ظهور هذا البطل
الشمالي عند العرب . . وهو كراو يبنى يحاول أن يمزج البطولتين
بعضهما ببعض ، بطولة النبي الشمالي ببطولة اليمنيين الذين
امتألت أساطيرهم بأكثر من بطل .

والواقع أن البطل العربي تتجمع فيه سمات هامة : أولها
اتصال نسبة بما يثبت عروبته وشرفه وأهمية آبائه جميعا . .
وثانيها دفاعه عن مبدأ وعقيدة ، وأيا كان هذا المبدأ وتلك العقيدة
فلا بد أن تكون خيرة مؤمنة . . وثالثها أن تسنده قوة غيبية خارقة
تثبت صحة ما يدافع عنه من مبدأ كما تثبت أهميته هو في عالم
الأبطال. الخالدين . .

هذه السمات تجدها في كل أبطال وهب وعبيد ، فليس منهم
الا كل ملك يتصل نسبة بابائه من الملوك حتى يصل الى هود
ومن هود الى آدم . . وكلهم يدافعون عن الايمان سواء كان هذا
الايمان هو التوحيد بعباده أم هو دين من الأديان الكتابية . . وكل
منهم له قوة غيبية تساند خطاه ، ولعل هذا أوضح ما يكون في قصة
ذى القرنين الذي يأتيه الوحي من أحلامه أو من ارشاد رفيقه
الخالد الخضر . بل ان معظم أبطال اليمن ان لم يكونوا ملوكا فهم

انباء سخر لهم الجن والانس والرياح والوحوش كسليمان بن داود او كصالح النبي او هود نفسه ..

وفي محمد (ص) اجتمعت هذه الصفات .. وقد حدثك عن نفسه ، وانت تعرف رسالته ، بقيت القوة الخارقة وهى السمة الثالثة فى البطل العربى ، وهى نفسها التى ستفسر لنا فى بساطة ويسر ما امتلأت به كتب السيرة من احداث خارقة تنسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانت قد ترفضها عقلا ، وقد تنكرها دينا ، ولكنك ستعرف سببها فى كتب السيرة حين تعرف انها تحقق شرطا جوهريا من شروط البطل عند العرب .. فقد كان من الطبيعى اذن ان تضيف هذه الكتب الى الرسول كبطل كل علامات التأييد الغيبى كالملائكة التى تحارب فى صفوفه ، وكمعرفته لما يدور فى الخفاء ، ثم صور ايمان الناس فى مختلف العصور والازمان به وبرسالته ، الناس والجماد ايضا .

وهذا كله يمثل السبب الثالث فى اتخاذ السيرة شكل القصة وهو سبب كما ترى نفسى يتعلق بتصوير العرب لأبطالهم ، وبحاجة العرب الى بطل جديد يجمع سمات الدين الجديد الذى آمنوا به، ويجمع فى نفس الوقت سمات ابطالهم القدامى ومميزاتهم ..

فالسبب كما ترى هى اولا ان النبى وسيرته كان فيهما الغناء عن السير الجاهلية لشعب آمن به وبرسالته . وهى ثانيا ان العرب منعوا فى القرن الاول للهجرة من رواية احاديث الرسول فوجدوا فى السيرة متنفسا لتسداول احاديث الرسول وحكايات

حياته . وهى ثالثا ان محمدا كان شماليا يمثل البطل الجديد الذى يجمع فى نفس الوقت سمات البطل العربى فى كل مراحل التاريخ الأسطورى للعرب . .

وهذه الأسباب المتداخلة المتشابكة يضاف اليها سبب جوهرى هام وهو حاجة العرب الى زاد من القصص باستمرار — وقد أثبتنا من قبل ان أدبهم الأساسى كان هو القصة ، وان مجالس أسماهم لا يمكن ان تخلو من القصص ، وقد نهى الاسلام عن الجاهلية وسيرة أهلها — فكان لابد من البحث عن مصدر جديد للقصص والأسمار .

والسيرة النبوية بهذا تقف مكرحلة انتقال بين الشكل القصصى الذى عرفه العرب قبل الاسلام وبين شكلها الذى تطور فيما بعد الى القصص العربى الاسلامى . . فالذى لا شك فيه ان السيرة قد اثرت فى القصة العربية تأثرا ضخما وكبيرا .

وانت لن تجد قصة عربية بعد هذا الا وهى تبدأ بنسب البطل وقبيلته ، واتصال هذا النسب وصحته ، وأهمية تلك القبيلة وخطورتها . . ثم لن تجد قصة بعد هذا الا وبطلها يدافع عن حق وقضية ، ويحارب شركا وكفرا . . ثم لن تجد بطلا لا تؤيده قوة غيبية تسدد خطاه وتعينه . فكان السيرة كانت قمة للأعمال القصصية قبل الاسلام ، تبلورت فيها كل مميزات القصة العربية لتغدو بعد هذا مصدرا للفن القصصى عند العرب .

فسيف بن ذى يزن البطل الأسطورى يتصل نسبه من

التبابعة حتى هود ثم آدم ، وهو يدافع عن الايمان والتوحيد بصورة عامة ، ويحارب الشرك والكفر بصورة عامة ، وان كان في كثير من الاحيان يحدد صورة الايمان بأنها دين ابراهيم الخليل . . وهو مؤيد بالجن المؤمن ومجموعة من الطلاسم التي تفتح له كل مغلق ، بل هو مؤيد بقوى مؤمنة سالحة كالخضر الذي يظهر له اكثر من مرة وكغيره من الأنبياء الصالحين الذين ينتظرونه ليهدوه سواء السبيل .

وعنتره يتصل نسب ابيه ونسب قبيلته بنى عبس لتغدو اشرف قبائل العرب ، فاذا ما استمرت القصة قليلا اكتشفت ان امه بنت ملك الاحباش فهى رغم كونها امة في بلاد العرب الا انها شريفة النسب ، بل هى اكثر الحبشيات عزة ومكانة . . وعنتره قوى قوة خارقة وهبها له الله تجعله يفوق البشر جميعا وقت الصدام . . وحين تعوز المؤلف رسالة يضيفها الى عنتره فهو يقول ان عنتره سلط على العرب ليقضى على كل جابرتهم قبل الاسلام ليمهد بهذا للنبي ، فما يظهر الا وقد قتل عنتره كل جبار يخشى على الرسول منه .

وكما اثرت السيرة في القصة العربية من بعد فكذا اثيرت في الحديث النبوى . فقد انتشرت هذه الكتب وكانها تحوى علما حقيقيا لا جمعا اسطوريا لما سبق الرسول من احداث ، ورواية قصصية لاحداث حياة الرسول . . وهكذا دخل الحديث الشئ الكثير من الاسرائيليات والوضع . . فانت ترى ان مصادر

هذه الكتب كانت رواة الأخبار كوهب وعبيد وغيرهم كما كانت الكتب المختلفة التي تتناول أساطير العرب وحكاياتهم ، بل أنت ترى أن من العاملين في تدوين السيرة مؤرخون لأساطير العرب كوهب بن منبه نفسه .

ولعلك تستطيع الآن أن تدرك سر كلمة الامام أحمد بن حنبل التي أوردها السيوطى فى الجزء الثانى من الانتقان اذ يقول : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى » .

أما التفسير فلأنه استمد معظم مادته من كتب السيرة وما تحكى من قصص وحكايات .. وأما الملاحم فقد رأيت معى عند الكلام عن كتاب عبيد أنه روى على لسان تبع الأوسط ٦٩٤ بيتا نحكى حياته وأعماله ويمكن اعتبارها بعد جمعها ملحمة كاملة ، وهى كما ترى من النظرة الأولى موضوعة ولا شك ، فتبع لم يكن يعرف العربية التى كتب بها الشعر المنسوب اليه .. أما المغازى فقد كتبت كما رأينا كعمل قصصى يمثل الامتداد لما عرف العرب من قصص، فلم يكن القصد من تدوينها العلم والتاريخ بقدر ما كان القصد من تدوينها الفن والامتعاع ، وتحقيق الصورة الكاملة للبطل العربى كما تصوره كتاب هذه المغازى ..

كلام أحمد بن حنبل اذن صادق صدق كلام الخبير العارف، وهو فى نفس الوقت دليل على صدق ما توصلنا اليه من نتائج بشأن هذه الكتب .. اعنى كتب السيرة ..

وكتب السيرة كما رأينا تمثل الركن الثالث في أركان القصة العربية في هذا العصر الذي أسميناها بـ عصر التجميع .. فهي تمثل النوع الذي يعنى بأحداث تتعلق بفرد واحد ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء كانت هذه الأحداث قد أخذت مكانها قبل مولده أو بعده .. إلا أن هذه الكتب في الوقت نفسه تعتبر مرحلة الانتقال بين عصر التجميع هذا وبين عصر التدوين الذي يليه .. فهي قد استفادت من الركنين الآخرين في عصر التجميع وأخذت منهما كل ما يمكن أن تأخذه ليتكامل لها الشكل القصصي . وهي قد أضافت إلى كل هذا تقاليد جديدة إلى العمل القصصي العربي تظهر آثاره فيما جاء بعدها من أعمال .. ثم هي تروى في جزء كبير منها أحداثاً واقعية شهدتها أكثر من واحد ورواها أكثر من واحد ، وأعنى حياة الرسول (ص) نهى والحالة هذه نقله إلى الكتابة عن معلوم معروف ، لا رواية مصاغة عن روايات قديمة معروفة وحسب ..

وأحسب أنه من المفيد لنا أن نقف وقفة صغيرة عند أحد هذه الكتب نتعرف عليه تعرفاً واضحاً ، وأحسب أن أقرب هذه الكتب إلى اكتمال الصورة سيرة ابن إسحاق التي نقلها ابن هشام ، وحققتها لنا وقدمها للمطبعة العربية في أربعة أجزاء الأساتذة : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي تحت اسم السيرة النبوية لابن هشام ..

* * *